

التبيان في تفسير القرآن

(136) والاستثناء راجع إلى العذاب دون الساعة، لأنها لا تكشف ولا محيص عنها. قوله تعالى:

ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (42) فلولا
إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون (43) آيتان
أعلم أنّ تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بهذه الآية أنه قد أرسل الرسل قبله إلى اقوام
بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم ليخضعوا ويذلوا لأمر الله لأن
القلوب تخشع والنفوس تضرع عند ما يكون من أمر الله البأساء والضراء. وقال قوم: البأساء
الجوع، والضراء النقص في الأموال والنفوس. والبأساء: من البأس والخوف والضراء من الضر،
وقد يكون البأساء من البؤس، فأعلمه الله أنه أرسل إلى أمم وأخذها بالبأساء والضراء، فلم
تخشع ولم تضرع. وقال: " لعلهم يتضرعون " ومعناه لكي يتضرعوا. وقيل: معناها الترجي
للعباد، كما قال: " لعله يتذكر أو يخشى " (1). قال سيبويه: المعنى اذهباً أنتما على
رجائكما، والله عالم بما يكون من وراء ذلك. وقوله " فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا " معناه
هلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا " ولكن قست قلوبهم " أي أقاموا على كفرهم. قال الفراء كلما
رأيت في الكلام (لولا) ولم تر بعدها اسماً، فهي بمعنى (هلا)، كقوله: " لو لا آخرتني إلى أجل
قريب " (2) و " فلولا أن كنتم غير مدينين " (3) وإذا كان بعدها اسم، فهي بمعنى (لو) التي
تكون في جوابها اللام، و (لوما) فيها ما في (لولا) من الاستفهام والخبر. وقد أخبر الله في
هذه الآية أن الشيطان هو الذي يزين الكفر للكافر بخلاف _____ (1) سورة

20 طه آية 44. (2) سورة 63 المنافقون آية 10 (3) سورة 56 الواقعة آية 86